



- مدخل -

الحمد لله وبعد، إلى كل مسلم في الشام.. وإلى كل مسلم جسده في فجاج الأرض وقلبه في الشام.. ها قد تقاطرت الجبارة موعدهم الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.. فإن كان الصليبي قد سبقه لها بالدرونز.. فقد جاء الدهري بسخوي ضناً أن يختصوا دونه بشؤم الجريمة.. وأول من تلقى نيران غاراتهم لم يكن جزار الأطفال بالبراميل.. بل الأطفال أنفسهم والنساء وفصائل الثوار الفاضلة..

ومازال سباع الغرب يظنون أنه لا يليق أن يشغل غيرهم منصب أستاذ حقوق الإنسان والحرية..

تحرّك هؤلاء كلهم بمجرد أن طرق المجاهدون حلقة الباب على الساحل النصيري..

صيانة مبرمل الأطفال أغلى لدى أستاذ حقوق الإنسان من ضحاياه..

لهم الله يا أهل السنة في الأرض المباركة.. غدوتم بين خوذة الجبارة وصفائر الأزارقة.. إن أفلت مجاهدكم من صاروخ هؤلاء احتضنته مفخخات أولئك..

وفي شبيه هذه النوائب يحال لبعض الحادبين أن النذارة تقتضي التهويل، فلا يزال يخطب بالهلع حتى تنخسف القلوب.. وتتبدد جمعية التوكل.. ويتيه تعلق النفوس بالله إلى التضرع للقوى الإقليمية.. وتسوّل النصرة ممن قد يكون في ميزان الله أحوج إليك منك إليه.. وهكذا كم من شقيق حجب عن أهله الباب وهو يروم نجتتهم..

بل ربما داشرت عبارات بعض هؤلاء المهوّلين شيئاً من الجزع وشبيه العويل، وقد صور حال هؤلاء أبو العباس بن تيمية

تصويراً بديعاً فقال تغمده الله برحماته: (وكثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال الإسلام؛ جزع وكل، وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكيل، والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للقوى) [الفتاوى: 18/295]..

وعلوم الاستراتيجيات والتخطيط المعاصرةاليوم تزید التأکید أن تهويـل بـأس وـمنـعـة العـدو فيـ النـفـوس جـزـء منـ الحـرب النفـسـيـة (Psywar).. وـعـكـسـه تـقـلـيلـ شـوـكـةـ العـدوـ وـرـبـاطـةـ جـأـشـهـ منـ الدـعـمـ المـعـنـوـيـ الذـيـ يـقـوـيـ القـلـوبـ وـيـعـزـزـ الرـوـحـ المـعـنـوـيـةـ، وـقـدـ نـبـهـ عـلـىـ هـذـاـ القـرـآنـ تـنبـيـهـاـ عـجـيـباـ عـلـىـ ثـلـاثـ مـرـاتـبـ، فـيـ قـصـةـ يـوـمـ بـدـرـ:

فـإـنـ اللـهـ فـيـ تـهـيـةـ الـأـمـرـ أـرـىـ نـبـيـهـ فـيـ مـنـامـهـ الـكـافـارـ وـعـدـهـمـ قـلـيلـ كـمـاـ قـالـ اللـهـ {إـذـ يـرـبـكـهـمـ اللـهـ فـيـ مـنـامـكـ قـلـيلـاـ وـلـوـ أـرـاكـهـمـ كـثـيرـاـ لـفـشـلـتـمـ وـلـتـنـازـعـتـمـ فـيـ الـأـمـرـ} فـقـوـيـتـ عـزـيمـتـهـمـ عـلـىـ لـقـائـهـمـ..

ثـمـ لـمـ تـقـابـلـ الصـفـانـ أـرـىـ سـبـانـهـ كـلـ طـرـفـ الـآـخـرـ بـأـقـلـ مـاـ هـوـ عـلـىـ لـيـسـطـعـهـمـ بـعـضـهـمـ وـلـيـغـرـيـ كـلـ فـرـيقـ بـالـآـخـرـ كـمـاـ قـالـ اللـهـ {وـإـذـ يـرـبـكـوـهـمـ إـذـ التـقـيـتـمـ فـيـ أـعـيـنـكـمـ قـلـيلـاـ وـبـقـلـلـكـمـ فـيـ أـعـيـنـهـمـ لـيـقـضـيـ اللـهـ أـمـرـاـ كـانـ مـفـعـولاـ}..

ثـمـ لـمـ التـحـمـ الـجـيـشـانـ أـظـهـرـ اللـهـ الـمـسـلـمـينـ فـيـ عـيـونـ الـكـافـارـ ضـعـفـ عـدـهـمـ فـاـسـتـطـيـرـتـ قـلـوبـ الـكـافـارـ هـلـعـاـ وـتـزـاـيـلـتـ أـطـرـافـهـمـ ذـعـراـ فـأـمـكـنـ اللـهـ الـمـسـلـمـينـ مـنـهـمـ، كـمـاـ قـالـ اللـهـ {قـدـ كـانـ لـكـمـ آـيـةـ فـيـ فـتـنـتـنـ التـقـنـاـ فـيـنـةـ تـقـاتـلـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ وـأـخـرـىـ كـافـرـةـ يـرـوـنـهـمـ مـثـيـلـهـمـ رـأـيـ الـعـيـنـ}..

وـهـكـذـاـ فـإـنـ الشـيـطـانـ كـانـ يـجـرـيـ الـكـافـارـ عـلـىـ اـصـطـلـامـ أـهـلـ إـلـيـسـلـامـ بـتـهـوـيلـ قـوـةـ الـكـافـارـ فـيـ نـفـوسـهـمـ وـأـهـلـ لـنـ يـغـلـبـهـمـ أـحـدـ كـمـاـ قـالـ اللـهـ {وـإـذـ زـيـنـ لـهـمـ الشـيـطـانـ أـعـمـالـهـمـ وـقـالـ لـاـ غـالـبـ لـكـمـ الـيـوـمـ مـنـ النـاسـ}..

وـمـفـهـومـ تـشـرـيدـ الـخـلـوفـ، وـمـفـهـومـ إـعـدـادـ الـقـوـةـ لـلـتـرـهـيـبـ، فـيـ الـقـرـآنـ، هـيـ أـيـضـاـ جـزـءـ مـنـ دـلـالـاتـ هـذـاـ الـمـعـنـيـ الـنـفـسـيـ فـيـ الـحـرـوبـ، وـبـابـ هـذـاـ يـطـوـلـ..

وـالـمـرـادـ أـنـ هـذـهـ الـلـغـةـ التـخـوـيـفـيـةـ التـرـهـيـبـيـةـ الـإـحـبـاطـيـةـ فـيـ الـحـدـيـثـ عنـ تـوـاطـؤـ الـأـمـمـ عـلـىـ الـأـرـضـ الـمـبـارـكـةـ، وـالـتـيـ يـسـتـعـمـلـهـاـ بـعـضـ الـأـفـاضـلـ هـذـهـ السـاعـةـ، لـيـسـتـ الـطـرـيقـ الـشـرـعـيـ فـيـ هـذـهـ الـدـاهـيـةـ، فـهـذـهـ الـلـغـةـ الـنـيـاحـيـةـ مـثـقـابـ التـخـذـلـ، وـنـحـنـ الـيـوـمـ أـشـدـ مـاـ نـكـونـ لـلـغـةـ التـثـبـيـتـ وـأـنـفـاسـ الـمـبـشـرـاتـ، فـإـنـماـ الـقـوـةـ قـوـةـ الـقـلـبـ، وـالـنـصـرـ صـبـرـ سـاعـةـ..

وـهـذـاـ لـاـ يـعـنـيـ دـمـرـقـوـةـ الـعـدـوـ بـحـقـ دـوـنـ زـيـادـةـ، وـعـلـىـ وـجـهـ الدـعـوـةـ لـلـثـبـاتـ وـالـعـمـلـ، كـمـاـ قـالـ اللـهـ {قـلـ لـلـمـخـلـقـيـنـ مـنـ الـأـعـرـابـ سـتـدـعـوـنـ إـلـىـ قـوـمـ أـوـلـيـ بـأـسـ شـدـيـ}..

وـالـمـؤـمـنـ الـقـطـنـ يـفـتـحـ وـعـيـ الـمـسـلـمـينـ لـقـضـاـيـاهـمـ، وـيـحـرـكـ هـمـمـهـ لـيـعـصـبـواـ جـرـاـحـاتـهـمـ، مـعـ الـاحـتـرـاسـ أـنـ يـدـخـلـ فـيـ حـدـ الإـرـجـافـ.. فـقـدـ شـنـعـ الـقـرـآنـ عـلـىـ كـلـمـاتـ الإـرـجـافـ وـقـتـ الـحـرـبـ، كـمـاـ قـالـ اللـهـ {لـئـنـ لـمـ يـنـتـهـ الـمـنـافـقـوـنـ وـالـذـيـنـ فـيـ قـلـوبـهـمـ مـرـضـ وـالـمـرـجـفـوـنـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ لـنـفـرـيـنـكـ بـهـمـ ثـمـ لـاـ يـجـاـوـرـوـنـكـ فـيـهـاـ إـلـاـ قـلـيلـ}..

وـكـمـ ذـكـرـ بـعـضـ أـهـلـ التـفـسـيرـ أـنـ الـمـرـجـفـيـنـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ "قـوـمـ كـانـواـ يـخـبـرـوـنـ الـمـؤـمـنـيـنـ بـمـاـ يـسـوـؤـهـمـ مـنـ عـدـوـهـمـ، فـيـقـولـونـ عـنـ سـرـاـيـاـ الـمـسـلـمـيـنـ: إـنـهـمـ قـدـ قـتـلـوـاـ أـوـ هـزـمـوـاـ، وـإـنـ الـعـدـوـ قـدـ أـتـاـكـمـ"ـ، مـاـ يـخـتـلـطـ فـيـهـ الحـقـ بـالـبـاطـلـ، وـأـصـلـ الإـرـجـافـ الـحـرـكـةـ وـالـاضـطـرـابـ، وـاـسـتـعـمـلـتـ هـذـاـ لـأـنـهـ يـحـصـلـ بـمـثـلـ كـلـمـاتـهـمـ هـذـاـ اـضـطـرـابـ تـمـاسـكـ الـمـجـتمـعـ الـمـسـلـمـ..

فـإـنـ الـوـجـهـ إـذـ؟

الـقـبـلـةـ حـقـاـ تـحـتـ دـخـانـ هـذـهـ الـمـدـلـهـمـ إـيـقـادـ سـرـجـ الـقـرـآنـ حـتـىـ تـنـكـشـفـ الـمـخـارـجـ وـالـدـرـوـبـ وـأـنـفـذـ الـأـسـلـحـةـ وـأـمـكـنـ العـتـادـ.. وـيـتـدـلـيـ

للقلوب حبل التعلق بالله فإذا هو يلتف ما يألفون..

وسنعرض فيما يلي بعض هذه المعاني القرآنية:

قطع العائق:

من أعظم أنوار القرآن في نظير هذه الاداهية استحضار أن الله يقدر على أهل الإسلام تحذب أعداء الدين وتوافقهم عليهم ليختبر التوكل على الله.. ففي مشهد مهيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى القرآن لنا في لحظة اكتظاظ الأعداء يقول الله: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ}**

يا لجلالة المشهد.. يقال له إن الأعداء أبموا صفة وتحالفوا وهم حولكم الآن.. فيصعد القلب في معراج العبودية ويقول "حسبنا الله"، والحسب يأتي بمعنى الكفاية، أي أن الله كافينا.. ثم يثني على الله ويعظمه فيقول "ونعم الوكيل"، وأصل الوكالة الاعتماد، والوكيل هو الذي يعتمد عليه فيتولى الأمر..

فقوله "حسبنا الله ونعم الوكيل" حاصل معناها "الله كافينا وهو نعم من نعتمد عليه" ..

ولعلك لاحظت أن القرآن قبل أن يذكر مقولتهم هذه **{وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ}** ذكر أن حالاً إيمانية لهم سبقت ذلك فقال عنها **{فَزَادُهُمْ إِيمَانًا}**.. ظهر بذلك أن تلك المقوله التي فحّم الله شأنها **"وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ"** إنما هي ثمرة وأثر لقلب جلجل باليقين بالله في اللحظة التي تعثر فيها قلوب أكثر الخلق في شفقة الشكوك وصدوع الارتباطات.. وكم ينساب من الألسنة في مضائق المواقف كلمات إيمانية تبهت المستمعين يظنها الناس من براعة البيان وإنما هي من حرارة القلوب.. فإذا رأيت المعنيين بالشام تتفاوت كلماتهم فاعلم أن وراء ذلك قلوبًا تفاوت..

بل انظر كيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وصاحبه ضمن حدود سيطرة الكفار وبينهم وقد اشتد الطلب عليه، ووصلوا لمكان وجودهم فعلاً، بل لم يكن بين كفار قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلا أن يخوض أحد الكفار عينه ليراهم دونه، كما في البخاري عن أبي بكر (كنت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا).. فكفاهم الله إياهم وبلغ بهم الإيمان بمعية الله أعظم، كما قال الله: **{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرُوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}**..

فإذا تدبر المؤمن هذا الخبر من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أن الرهان حقاً على ما في القلوب.. وعلم أن أكثر الخسائر والنقص الذي أصاب المسلمين اليوم في سياستهم واقتصادهم وحروبهم وعلومهم ومعارفهم إنما منبعه نقص ما في القلوب..

وتأمل بالله عليك كيف ينبه القرآن على أن المدار على ما في القلوب في قول الله **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَيَّنُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعِلَمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتَحَّا قَرِيبًا}**..

وقد قال أبو العباس بن تيمية عن الأحوال التي تكون النية صادقة في طلب نصرة الدين لكن يغفل عن التوكل:

(وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به، فهو لاء يثابون على حسن نيتهم وعلى طاعتهم، لكنهم مخذلون فيما يقصدونه إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه) [الفتاوى: 10/277].

وجوهر التوكل والتعلق بالله في مثل هذه الأحوال أن تنخلع القلوب مما بيد الخلق.. وينقطع طمعها أن يكون في تدبرهم

شيء من الأمر.. حتى يكون نظر القلب يتقلب في السماء..

وما أكثر ما يقع في القلوب الاطمئنان للنصر وقت الكثرة والإمكانيات.. وهذا غير دقيق.. بل قد تكون الذلة مفتاحاً لتعلق القلوب بالله ف تكون سبباً للنصر.. وقد تكون الكثرة والإمكانيات تهش بثور العجب فيضعف التعلق بالله ف تكون سبباً للهزيمة..

وتدرك هذين بالمقارنة بين الآيتين.. الأولى قول الله **{وَلَقَدْ نَصَرْتُكُمُ اللَّهُ بِيَدِِكُمْ وَأَنْتُمْ أَذْلَهُ}**.. والثانية في قول الله **{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً}**.. فانظر كيف قاد الضعف المادي للتعلق بالله فانهمر النصر.. وكيف قادت القوة المادية للعجب فحجب من النصر بقدرها..

ثم انظر في يوم أحد كيف كان من أصعب المواقف إذ شُجّ وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكسرت رباعيته، ومع ذلك نهاهم الله في هذا الموضع عن أمرتين في العمل والمشاعر، فنهاهم عن "الهوان" في العمل، ونهاهم عن "الحزن" في المشاعر، وكشف لهم طريق الغلبة فقال لهم سبحانه يوم أحد **{وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**.. فالإيمان مفتاح الغلبة..

ثم تدرك كيف يصور القرآن انتصار أهل الإيمان ببركة التضرع والتعلق بالله كما يقول الله **{وَلَمَّا بَرَزُوا إِجَالُوتَ وَجْنُوْدِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرَغْ عَلَيْنَا صَبَرَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ}**

ومن المدهش حقاً عنابة القرآن بالتنبيه على هذه العلاقة بين الضراعة والنصر كما قال الله في موضع آخر **{وَكَأَيْنِ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُ الْمُحْسِنِينَ ..}**

ومازال القرآن يعيد التصريح بوظيفة "الأساء والضراء والمصائب والخطوب والكوارث" إذ يقدرها الله على الأمم.. وأن من أجل وظائفها المصحّ بها في القرآن استخراج الضراعة من قلوب العباد.. ومع ذلك مازالت النوايا وكتير من القلوب محبوسة لا تكاد تتزحزح..

قال الله سبحانه: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءُهُمْ بِأَسْنَانَ تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ فَسَتْ قُلُوبُهُمْ ..}**

وقال سبحانه في موضع آخر **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَّةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخْذَنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَرَّعُونَ ..}**

وقال سبحانه أيضاً **{وَلَقَدْ أَخْذَنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ..}**

وانظر كيف يصور القرآن نصر الله للقلة المؤمنة في مواجهة جيوش الأمم التي تتكالب عليها بحسب قوة إيمانهم وصبرهم ومجاهدتهم كما قال الله **{وَإِذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفُكُمُ النَّاسُ فَأَوْكِدُمْ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ ..}**

وشدائِ الأيام يختبر الله بها شدائِ الإيمان كما قال الله في حكمة مداوله الأيام **{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} ..** ثم قال عقبها **{وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ..}**

وفي موضع آخر من كتاب الله قال سبحانه **{قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَيَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبَتِّلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ..}**

وهكذا قول الله سبحانه {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، ونظائرها..

فالمحن هي أدق ساعات الاختبار.. والطالب النابه إذ دخل قاعة الاختبار انكب على إحسان الجواب.. فكيف تدخل علينا ساعات الاختبار فنتقن في صياغة الإجابات الخاطئة؟!

ومن عجائب القلوب أنها إذا تعلقت بالمقاييس المادية ضمرت حدود الرؤية فيها وضاق أفقها برغم ظنها أنها أكثر حداثة ورقىً.. وإذا تعلقت بالله انفسحت لها أmdاء الرؤية.. وخذ مثلاً من أسباب النصر.. فإن المقاتل المادي لا يفكر إلا في وسائل المواجهة التقليدية المعروفة.. أما المؤمن فهو يعلم أن "جنود الله" لا يقدر عددها ونوعها وقوتها إلا هو، وما أكثر ما تكون مفاجئة للعدو، كما قال الله {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} وقال سبحانه {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ..

ومن أجل جنود الله الملائكة العظام كما قال الله {وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} وقال سبحانه {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا}..

بل ومن جنود الله العجيبة في نصر المؤمنين ما يسمونه اليوم الكوارث الطبيعية مثل الأعاصير والرياح والعواصف والزلزال والفيضانات .. كما قال الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّكُمْ رَعِيْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِحَابًا}..

وقال عن الفيضانات والمياه في قصة قوم نوح {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً}..

وقال عن فرعون في قصة موسى {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}..

وقال سبحانه عن جنس ذلك {فَكُلُّا أَخْنَثَنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْنَثَهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا}..

وقال سبحانه {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الْرِّيَحِ فَيُغَرِّقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمُ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}..

وهذا باب معروف إن شاء الله، ولكن المقصود التذكير بسعة وتنوع وقوى جنود الله.. وسعة أفق المجاهد المتوكل وضيق أفق المقاتل المادي..

الاستعانة بالحقائق:

كم في كتاب الله من الحقائق التي إذا تدبرها المؤمن في هذا الزمن وأمام مثل هذه الملماالت أصبحت ركناً شديداً يأوي إليه.. فحقائق القرآن من أجل المثبتات..

ومن أعظم هذه المثبتات القرآنية أن لا ينحبس التفكير على جراحات المسلمين، فإن هذا قد يورث الفتور والتقاعس، بل نبه القرآن على أمر هو في غاية العجب من الإرشادات النفسية، وهو أن يستحضر المؤمن أيضاً المآزق التي يعيشها الأعداء أيضاً، فإن هذا مما يقوى القلوب، وقد جاء هذا الإرشاد النفسي في موضع من كتاب الله، كقوله سبحانه {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهِ}..

وقوله سبحانه {وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ}..

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا المعنى المذكور في هذه الآيات هو المغزى من ذكر التضعيف في قول الله {أَوَلَمَا

أَصَابَتُكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ السِّيَاقُ سِيَاقُ عَتْبٍ، إِلَّا أَنْ ذِكْرَ تضعيفِ مَا غَرَّمُهُ الْكُفَّارُ مِنْ قَبْلِ يَرَادُ بِهِ التَّعْزِيَةُ وَالتَّسْلِيَةُ وَالتَّصْبِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَصَحْبِهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْمُصِيبَةِ الْحَالِيَّةِ بِأَنَّكُمْ قَدْ أَصَبْتُمُ الْكُفَّارَ ضَعْفًا مَا أَصَابُوكُمْ.. وَهَذَا مِنْ جُنُسِ مَا سَبَقَ فِي آيَتِي ذِكْرِ الاشتراكِ فِي الْقَرْحِ وَالْأَلْمِ..

وَكُلُّ هَذَا يُؤكِّدُ عِنْدَيْنَا الْقُرْآنَ بِهَذَا الإِرْشَادِ النُّفُسِيِّ فِي اسْتِحْضَارِ الاشتراكِ فِي التَّحْدِيَاتِ.. وَعَدْمِ الْاِسْتِسْلَامِ لِدُعَائِيَّةِ الْعُدُوِّ فِي تَهْوِيلِ قُوَّتِهِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَقْزِيمِ قُدْرَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّصْدِيِّ لِهِمْ..

وَلَذِكْرِ فَإِنَّكَ تَرَى فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنَّهُ بِرَغْمِ ذِكْرِهِ لِشَدَّةِ كِيدِ الْكُفَّارِ وَمُكْرَهِهِمْ كَفُولُهُ سَبَّحَهُ {وَقَدْ مَكْرُوْهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُوْهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُوْهُمْ لِتَرْزُولَ مِنْهُ الْجَيْلَ}..

وَقُولُهُ سَبَّحَهُ {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بِلْ مَكْرُوْهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ}..

وَقُولُهُ سَبَّحَهُ {وَمَكْرُوْهُمْ كُبَارًا}..

إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَهُ يَقْوِي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِبَيَانِ هَشَاشَةِ كُلِّ هَذِهِ الْأَحَابِيلِ وَالْمُكْرَهِ الَّذِي فُتُّلُوهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ {فَقَاتَلُوا أُولَئِكَ الْشَّيْطَانَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}..

وَبَيْنَ أَنَّهُمْ بِمُكْرَهِهِمْ وَنَتْائِجِهِ الْخَائِيَّةِ .. فَقَالَ سَبَّحَهُ {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بِنُبْيَانِهِمْ مِنَ الْقَوْاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوْقِهِمْ}..

وَيَجْعَلُهَا سَبَّحَهُ سَنَةً مِنْ سَنَنِهِ {اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُوْهُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُوْهُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ}.. وَقَالَ سَبَّحَهُ {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ}..

وَالْعَاقِلُ الَّذِي يَسْبِرُ التَّارِيَخَ وَيَعْرِفُ أَخْبَارَ النَّاسِ وَأَيَّامِهِمْ يَعْلَمُ حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَلْغُهُ الْوَحْيُ أَنَّ كِيدَ الْخُوْنَةِ لَا يَثْمِرُ.. وَلَذِكْرِ حَكْيِ اللَّهِ سَبَّحَهُ {وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِيَّنِ}..

بَلْ إِنَّ الَّذِي يَعْلَمُهُ أَهْلُ الْخَبَرَةِ بِأَيَّامِ النَّاسِ لَيْسَ أَنَّ كِيدَ الْخُوْنَةِ لَا يَفْلُحُ فَقْطًا، بَلْ كَثِيرًا مَا يَنْقُلُبُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكْبُودُونَ}.. وَقَالَ سَبَّحَهُ {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}..

وَهَذِهِ التَّنْبِيَّهَاتُ الْمُتَكَرِّرَةُ عَنْ سُقُوطِ كِيدِ الْكُفَّارِ مَقْصُودُهَا تَصْفِيَّةُ شَعُورِ الْمُؤْمِنِ قَطْعًا كَمَا قَالَ اللَّهُ {وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} وَقُولُهُ سَبَّحَهُ {وَلَا تَحْزُنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}.. لِأَنَّهُ كُلُّمَا صَفَى بَاطِنَ السَّلَاحِ كَانَ أَنْفَذَ لِطَلَقَاتِهِ..

وَالْأَهْمُ فِي هَذَا كُلُّهُ أَنَّ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ طَرِيقَ بَطْلَانِ الْكِيدِ وَالْمُكْرَهِ الْكُفَّارِ الْكَبَارِ، وَهُوَ مَرَّةٌ أُخْرَى: التَّعْلُقُ بِاللَّهِ وَتَقْوَاهُ، كَمَا قَالَ سَبَّحَهُ {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}..

وَمِنْ حَقَائِقِ الْقُرْآنِ الَّتِي تَشَدُّدُ أَفْئَدَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعِفِينَ أَنْ فَتْحَ أَبْوَابِ الْإِمْكَانِيَّاتِ عَلَى عَتَاهُ الْكُفَّارُ هِيَ الْلَّحَظَاتُ الَّتِي تَسْبِقُ الْأَخْذَ الْإِلَهِيَّ الْمُبَاغِتَ كَمَا قَالَ اللَّهُ {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}..

وَقَالَ سَبَّحَهُ {ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْنَا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ أَبَاءَنَا الْخَرَاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخْذَنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}..

ومن أعظم المثبتات القرآنية أن يستحضر المؤمن أن الله جل وعلا ينصر أولياءه بحسب ولائهم بنوع رعب يلقيه فيه قلوب أعدائهم، كما قال الله {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُو الَّذِينَ آمَنُوا سَلَّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ}..

ولكن ما سبب هذا الرعب؟

الحقيقة أنه كما أن إفراد الله بالتعلق والتوكيل عليه وتفويض الأمور إليه سبب لقوة القلب.. فإن الشرك الذي مادته وينبوعه التعلق بغير الله هو سبب الرعب الذي يقع في قلوب الكفار، كما قال الله {سَلَّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ}..

ولذلك قال أبو العباس ابن تيمية عن مركزية قوة القلب (الشجاعة ليست هي قوة البدن، وقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته) [الفتاوى: 28/158].

ولذلك كثيراً ما يتسائل المتابعون: ما سبب شيوخ الضعف المعنوي في مقاتلي الكفار؟ والحقيقة أن من أعظم ذلك هو هذا الكفر الذي في قلوبهم، فصار تعلقهم بغير الله سبحانه، وكل من تعلق بغير الله لحقه من الخور والوهن بقدر ذلك..

وقد نبه القرآن على كثرة فرار الكفار في قتالهم في موضع متعدد، منها قول الله {لَنْ يَضْرُوكُمْ إِلَّا أَذْدَى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوْلُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}..

وقال سبحانه {وَلَوْ فَاتَّكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}..

وقال سبحانه {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوْلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوْلُنَ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}..

ومن أسباب هذا أن القلب إذا خلا من التعلق بالله تعلق بالدنيا، كما قال الله {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ}..

فكلما شمخ المؤمن في أفلال التعلق بالله زادت طمأنينته وسكونه وقوته قلبه.. وكلما شرك الكفار وشاطرهم شيئاً من التعلق بغير الله اعتبره من الرعب على قدر ما شاركهم.. وهذا فرع عن قاعدة "تبعيض الجزاء بقدر العمل"، وهي قاعدة نافعة عظيمة في تدبر الأعمال والجزاءات في القرآن، في باب الثواب وباب العقاب كليهما، وجواهر هذا الأصل هو "التحذير من مشابهة الفعل بالفعل، لا إلحاد الفاعل بالفاعل"، وسبق نشر شيء عنها، وسألنا لاحقاً المزيد بإذن الله من تطبيقات النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فيها..

ومن أعظم المثبتات أن يومن المؤمن أن هذه التحالفات الفاسدة، وهذه الخيانات التي يتذلل فيها الضعفاء للمستمكين .. سيأتي يوم قريب يتنصل فيها بعضهم من بعض.. كما قال الله: {إِذْ تَبَرَّا الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} ** وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرُّ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}..

ومن معاني القرآن في مثل هذه الساعات أن يستحضر المؤمن أن الله جل وعلا حين ذكر في كتابه آية "حياة الشهداء" {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ} أعقابها فوراً بذكر صنوف الابتلاء {وَلَنَبْلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالنَّمَرَاتِ} فيرتفع ثواب الشهادة بقدر مصايرة المجاهد على لأواء طريقها..

إنه أوان البأس الذي رفع الله شأن الصبر فيه حين قال {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبُلَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبُلَاسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} وحين البأس هو أوان شدة القتال في سبيل الله كما قال أهل التفسير.. وقارن مدح الله المؤمنين بالصبر أوان البأس بذمه فرار المنافقين منه في قوله {وَلَا يَأْتُونَ الْبُلَاسَ إِلَّا قَلِيلًا}..

ومن أعظم المثبتات القرآنية حال ملاحم أهل الإسلام أن يستحضر المؤمن أن إخوانه الذين سبقوه على هذا طريق سلام الإسلام ورأوا -بإذن الله- من كرامة الله لهم ما صاروا به يستبشرون بمن مازال على الطريق.. كما قال الله {وَيَسْتَبِشُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُثُونَ}..

ومن أعظم المثبتات القرآنية أن يوقن المؤمن أن ما يعتري قلبه بين فينة وأخرى من التخويف والترهيب من تحزب أمم الكفر إنما هو من الشيطان الذي يخوّف المسلمين بأوليائه الكفار كما قال الله {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أُولَيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، أي "يخوّفكم أولياء الكفار" كما قال أهل التفسير..

ومن أعظم المثبتات القرآنية أن يتدرّب المؤمن في كتاب الله "أغراض الإملاء للكفار" كقول الله سبحانه {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنَّفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}..

وقوله سبحانه {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَيِّنٌ}..

وقوله سبحانه {أَيَّ حَسِيبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَنَيْنِنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}..

وهذه مجرد أمثال ونماذج، وليس المقصود طبعاً الاستقصاء والتتبع، وهي حقائق قرآنية إذا تدبرها المؤمن وعَقَلَها وعاش معناها كانت له من أعظم العون في مواجهة مثل هذه الدواهي العظام التي تطوق أهل الإسلام.. فكم في تدبر القرآن من ظهير وسند..

تدعين المراجعات:

من أجل أنوار القرآن في مثل هذه الحنادس الدعوة إلى مراجعة العلاقة بالله.. وأن الانكسار في الجهاد فرع عن شرخ في التزكية.. كما بين كتاب الله هذا في قوله {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَرَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا}..

وقال سبحانه {أَوَلَمَّا أَصَابَتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا فَلَمْ يَأْتُمْ أَنَّهُمْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ}..

فيما لله العجب ما أشد شئم المعصية.. حتى ضعفت طاقة المجاهد ومال للفرار ووقع عليه الأذى يسبب ذنب!.. فإذا كان هذا على المجاهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكيف بنا نحن اليوم؟!

ومن كمال الدلالة القرآنية أن يبيّن القرآن المعنى وضده، وهو أحد الأوجه في تفسير وصف الله لكتابه بأنه "مثاني"، ومن أفراد هذا المعنى هاهنا: أن الله كما يبيّن أن المعاصي سبب للهزيمة فقد يبيّن أن الطاعات سبب للثبات كما قال الله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوَعَّظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبِيتًا}.

وأنتم يا أهل السنة في الشام وسط بين طرفين من المنتسبين للإسلام .. حيث ذكر الله في كتابه ثلاثة أطراف في قوله {وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا}

فقد حُرم فئام من المسلمين من شرف الجهاد معكم.. وشاركم طائفة من الغلاة قتال الكفار لكنهم "اعتدوا" .. وبقيتم أنتم بإذن الله من جمع أطراف الشرف في هذه الآية {وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا}..

وتقوى الله كما تكون في قتال المعتدين فإنها تكون في ترك العدوان في القتال.. فسنام الإسلام ليس للمخذلين عن الجهاد ولا للمعتدين في الجهاد..

والمراد أن شرف الجهاد الشرعي وسط بين من دعى لترك قتال الكفار وال المسلمين سوياً وهم المخذلون، وبين من دعى لقتال الكفار وال المسلمين سوياً كالغلاة، وهذا الوسط يتبيّن بمعرفة مثارات الذنوب في القوة الشهوية والغضبية المركوزة في النفس البشرية وسيأتي تفصيله في فرصة قادمة بإذن الله..

ومن أعظم أنوار القرآن في مثل هذه المداليم تدبر ربط القرآن النصر بقدر الاجتماع.. وهذا موضع تُسْكِب عنده عبرات المحبين للجهاد الشامي.. فقد تقرّحت الآفاق من مشهد الانفصال.. والله يقول {وَلَا تَنَازَّعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَنْهَبَ رِحْكُمْ} فعلى قدر التنازع والانفصال يكون ذهاب الريح، وعلى قدر اجتماع الكلمة يكون النصر..

بل انظر كيف أن "التنازع في الأمر" في موقف واحد حال الملهمة فتح على المسلمين من الانكسار بقدرها، فكيف بالانفصال والتنازع والتشرد على طوائف وأحزاب؟! يقول الله: {وَلَقَدْ صَدَقُكُمُ اللَّهُ وَعَدُهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْتُمْ عَنْهُمْ لِيَنْتَلِكُمْ وَلَقَدْ عَفَ عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}..

وتدرك هذا الذي وقع على سادات الأولياء الذين جمعوا شرف الصحابة وشرف الجهاد في موضع واحد كله بشؤم التنازع العارض من أعظم ما يقتلع من القلب جذور الحزبية القتالية..

وهذه الجراحات التي تقع بين فصائل القتال المتحزبة هي من جنس العذاب الذي يسلطه الله سبحانه كما قال جل وعلا {قُلْ هُوَ الْفَارِدُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسُكُمْ شَيْعًا وَيُنِيقَ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَعِهِنَّ}..

فكل من سعى في رأب الصدع ولم شمل أهل السنة فقد سعى في رفع العذاب عنهم.. والله سبحانه يكون في عون العبد إذا كان العبد في عون واحد من إخوانه وفي لفظ كان الله في حاجته، ويفرج عنه كربة من كرب يوم القيمة إذا فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا، وكلاهما في الصحيحين، فكيف بالله عليك من سعى في رفع العذاب عن طوائف الأمة، فكيف سيكون ثوابه؟ ولذلك عظم الله في كتابه شأن الإصلاح بين الناس في موضع متعدد..

ومن أعجب دروس القرآن في مثل هذه اللحظات، بل هي من معجزاته ودلائل نبوة من أتى به، أن أصحاب التفكير الذاتي والمصالح الشخصية الذين لا يهمهم إلا أنفسهم أو وطنهم الجغرافي المسيس، ولا يهمهم أهل الإسلام؛ هذه الشرحة هم مادة الوقع في "ظن الجاهلية"، الذين لا يثقون بوعد الله، كما قال الله {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهْمَمْتُهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}..

وما أحسن عبارة ابن كثير عن أصحاب هذا التفكير إذ قال في تفسيره (اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة).. وهذا الظن الذي سماه القرآن "ظن الجاهلية" ما أكثر ما رأينا في أصحاب الدعوات "الوطنية الجاهلية" .. وهكذا فجاهلية الراية تورث جاهلية المشاعر..

والحقيقة أن الظنون المرتابة كثيراً ما تنبّح لحظة احتشاد الأحلاف وإحاطة كثافتها بأهل الإسلام كما وصف الله يوم الأحزاب بقوله: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَيْصَارُ وَلَفَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}..

وهي من أحكام لحظات الاختبار لأهل الإيمان كما في الآية التي عقّبها {هُنَالِكَ ابْتُلَى الْمُؤْمِنُونَ وَرُلُزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}..

وهي أيضاً أكثر لحظات الإخفاق للقلوب التي ضعف فيها اليقين كما في الآية الثانية بعدها {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي

فُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا..

ثم لما حكى الله المقوله النفاقية التي نجمت في هذه المحنـة "ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا" جاء بعدها ببعض آيات حكـاية المقالـة الصحـابـية الإيمـانـية التي تـلـهـفـ النـفـوسـ الشـرـيفـةـ أنـ لوـ كانـتـ شـارـكـتـ بمـثـلـ هـذـاـ المـوقـفـ..

تـذـكـرـ هـذـهـ المـقولـةـ النـفـاقـيـةـ السـابـقـةـ يـوـمـ اـجـتـمـاعـ الـأـحـزـابـ {وـإـذـ يـقـولـ الـمـنـافـقـوـنـ وـالـذـينـ فـيـ قـلـوبـهـمـ مـرـضـ مـاـ وـعـدـنـاـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ إـلـاـ غـرـورـاـ}..

ثم اقرأ قول الله بعدها ببعض آيات {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}..

لا إله إلا الله.. هذا والله الشرف.. هذه والله المعالي.. يارب نسائلك من فضلك أن تعمـرـ قـلـوبـنـاـ بـكـمالـ التـوـكـلـ عـلـيـكـ وـالـيـقـيـنـ بـكـ وـبـوـعـدـكـ..

ومن المؤكـدـ أـنـ القـارـئـ لمـ يـفـتـهـ مـلـاحـظـةـ الاـشـتـراكـ بـيـنـ وـصـفـ الـقـرـآنـ لـحـالـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يومـ بـدـرـ،ـ وـوـصـفـ الـقـرـآنـ لـسـادـاتـ الـأـوـلـيـاءـ مـنـ الصـحـابـةـ يـوـمـ الـأـحـزـابـ،ـ فـقـدـ قـالـ سـبـحـانـهـ عـنـ اـحـتـشـادـ الـأـعـدـاءـ يـوـمـ بـدـرـ {الـذـينـ قـالـ لـهـمـ النـاسـ إـنـ النـاسـ قـدـ جـمـعـوـاـ لـكـمـ فـأـخـشـوـهـمـ فـزـادـهـمـ إـيمـانـاـ وـقـالـوـاـ حـسـبـنـاـ اللـهـ وـنـعـمـ الـوـكـيلـ}ـ فـوـصـفـهـ بـأـنـ الـخـطـبـ زـادـهـ إـيمـانـاـ..

وـبـنـفـسـ هـذـاـ الـوـصـفـ قـالـ سـبـحـانـهـ عـنـ اـحـتـشـادـ الـأـعـدـاءـ يـوـمـ الـأـحـزـابـ {وـلـمـ رـأـىـ الـمـؤـمـنـوـنـ الـأـحـزـابـ قـالـوـاـ هـذـاـ مـاـ وـعـدـنـاـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ وـصـدـقـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ وـمـاـ زـادـهـمـ إـلـاـ إـيمـانـاـ وـتـسـلـيمـاـ}ـ فـوـصـفـهـ أـيـضـاـ بـأـنـ الـحـدـثـ مـاـ زـادـهـمـ إـلـاـ إـيمـانـاـ..

وـرـبـماـ لـمـ يـفـتـهـ القـارـئـ أـيـضـاـ مـلـاحـظـةـ أـنـ "ظـنـ الـجـاهـلـيـةـ"ـ ذـكـرـ اللـهـ ظـهـورـهـ فـيـ الـوـقـعـاتـ الـثـلـاثـ:ـ فـقـالـ عـنـ غـزـوـةـ أـحـدـ {يـظـنـوـنـ بـالـلـهـ غـيـرـ الـحـقـ ظـنـ الـجـاهـلـيـةـ}ـ وـقـالـ عـنـ غـزـوـةـ الـخـنـدقـ {وـتـظـنـوـنـ بـالـلـهـ الـظـلـوـنـاـ}ـ وـقـالـ عـنـ مـنـصـرـ فـرـسـوـلـ اللـهـ إـلـىـ عـامـ الـحـدـيـبـيـةـ {وـظـنـنـتـمـ ظـنـ السـوـءـ}ـ..

فـهـذـهـ مـنـ الـأـمـرـاـضـ الـمـتـكـرـرـةـ الـظـهـورـ فـيـ الـلـهـظـاتـ الـحـالـكـةـ..

وـمـنـ أـشـدـ الـأـمـرـاـضـ الـتـيـ تـفـتـكـ بـالـكـوـادـرـ الـمـنـتـسـبـةـ لـلـجـهـادـ أـنـ يـكـونـ وـلـأـهـاـ وـنـفـرـتـهـاـ عـلـىـ قـدـرـ حـظـ نـفـسـهـ،ـ كـمـ قـالـ اللـهـ عـنـ جـنـسـ ذـلـكـ {فـإـنـ أـعـطـوـاـ مـنـهـ رـضـوـاـ وـإـنـ لـمـ يـعـطـوـاـ مـنـهـ إـذـاـ هـمـ يـسـخـطـوـنـ}ـ..

وـلـكـ النـفـوسـ إـذـاـ مـرـضـتـ أـظـهـرـتـ مـوـالـتـهـاـ فـيـ قـالـبـ جـمـعـ الـكـلـمـةـ،ـ وـأـظـهـرـتـ مـعـادـتـهـاـ فـيـ قـالـبـ الصـدـعـ بـالـحـقـ..ـ وـلـلـنـفـوسـ مـنـ الـخـبـاـيـاـ وـالـأـغـوـارـ مـاـ لـاـ يـقـدـرـهـ إـلـاـ اللـهـ..

وـمـنـ أـعـظـمـ الـمـرـاجـعـاتـ الـتـيـ تـسـتـدـعـيـهاـ الـأـحـدـاثـ إـعـادـةـ بـعـثـ الـهـمـةـ باـسـتـكـمـالـ تـحـكـيمـ الشـرـيـعـةـ فـيـ كـلـ شـؤـونـ الـحـيـاـةـ..ـ وـكـثـيرـ مـمـنـ غـزـتـ قـلـبـهـ النـظـرـاتـ الـمـادـيـةـ فـيـ الـاجـتـمـاعـ الـبـشـرـيـ يـظـنـ أـنـ "الـشـرـيـعـةـ"ـ غـرـضـهـ الـبـعـدـ الـأـخـلـاـقـيـ الـفـرـديـ فـقـطـ،ـ وـهـوـ فـكـرـ يـرـوجـ بـيـنـ مـنـ يـمـكـنـ تـسـمـيـتـهـمـ "مـتـصـوـفـةـ الـحـدـاثـةـ"ـ،ـ وـهـمـ خـلـيـطـ مـنـ الـعـلـمـانـيـيـنـ الـذـيـنـ يـسـمـونـ أـنـفـسـهـمـ الـمـتـصـالـحـيـنـ مـعـ الـدـيـنـ وـالـمـتـقـارـبـيـنـ مـعـهـمـ مـنـ روـحـانـيـيـ الـفـلـسـفـةـ الـمـعاـصـرـةـ،ـ فـيـحـصـرـوـنـ إـلـاسـلـامـ بـالـتـفـسـيـرـ الـأـخـلـاـقـيـ،ـ بـالـتـعـرـيـفـ الـضـيـقـ لـلـأـخـلـاقـ،ـ وـهـيـ فـكـرـ قـدـيـمـةـ قـدـ تـعـودـ لـتـصـبـحـ مـوـجـةـ الـيـوـمـ لـلـتـجـمـلـ أـمـامـ مـارـسـ النـقـدـ الـأـخـلـاـقـيـ الـغـرـبـيـ لـلـحـدـاثـةـ،ـ وـلـاـ يـدـرـكـ هـؤـلـاءــ أـوـ يـدـرـكـوـنـ لـكـنـ لـاـ يـعـيـشـوـنـ الـمـعـنـىـ يـقـيـنـاـ..ـ أـنـ إـقـامـةـ الـشـرـعـ زـيـادـةـ عـلـىـ كـوـنـهـاـ لـتـحـقـيقـ الـعـبـودـيـةـ لـلـهـ إـنـ لـهـ "آثـارـاـ مـنـ فـصـلـةـ"ـ فـيـ الـدـنـيـاـ بـهـطـوـلـ الـخـيـرـاتـ وـدـفـعـ الـجـوـائـ،ـ كـمـ قـالـ اللـهـ {وـلـوـ أـنـ أـهـلـ الـقـرـىـ آمـنـوـاـ وـاتـقـوـاـ أـفـتـحـنـاـ عـلـيـهـمـ بـرـكـاتـ مـنـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ}ـ..

وـقـالـ سـبـحـانـهـ {وـلـوـ أـنـهـمـ أـقـامـوـاـ الـتـوـرـاـةـ وـالـإـنـجـيـلـ وـمـاـ أـنـزـلـ إـلـيـهـمـ مـنـ رـبـهـمـ لـأـكـلـواـ مـنـ فـوـقـهـمـ وـمـنـ تـحـتـ أـرـجـلـهـ}ـ..

وقد قال أبو العباس ابن تيمية: (فقد علم بالاضطرار من النقل المتواتر، والتجارب المعروفة، أن الأعمال الصالحة توجب أموراً منفصلة من الخيرات في الدنيا، وأن الأعمال الفاسدة توجب نقىض ذلك، وأن الله تعالى عذب أهل الشرك والفواحش والظلم، كقوم عاد وثمود ولوط وأهل مدين وفرعون، بالعذاب المنفصل والمشاهد، الخارج عن نفوسهم، وأكرم أهل العدل والصلاح بالكرامات الموجودة المشاهدة، وهذا أمر تقر به جميع الأمم، فكيف يقال إن العبادات والطاعات ليس مقصودها إلا ما يوجد في النفس من صلاح الخلق؟) [الصفدية: 2/238].

والبوج الأخير في هذه المقالة هو تأمل درس الحضارة الغربية مجدداً.. فتواطئ الأحزاب على الشام وإلقاءهم النيران على أهله مجرد تأكيد جديد ليوقظ الذي مازال يخفق قلبه بالهياق بالإنسان الغربي وتعشّق القيم في الحضارة الغربية.. وليرقرأ قول الله {هَا أَنْتُمْ أُولَئِكُمْ تُحِبُّهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ}..

اللهم استعملنا في تقوية قلوب إخواننا المسلمين..

والله أعلم،

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآلـه وصـحبـه،

صـيدـ الفـوـائـدـ

المصادر: